

المقاومة الثقافية لانتفاضة صفر ١٩٧٧
قراءة في الرموز والدلالات

م.م. ثاني عبد الله أحمد

محاضر بكلية التربية - ولاية جيفاوا، نيجيريا

muhammadsabdullahi044@gmail.com

الملخص

شهدت مدينة النجف الأشرف في شهر صفر من عام ١٩٧٧ واحدة من أبرز الانتفاضات الشعبية ذات الطابع الديني في تاريخ العراق المعاصر، حيث واجهت السلطات البعثية حشوداً جماهيرية ضخمة خرجت لإحياء الشعائر الحسينية، مستخدمةً القوة المفرطة لقمعها. تهدف هذه الدراسة إلى تحليل هذه الانتفاضة من حيث السياقات السياسية والدينية والاجتماعية التي أدت إليها، وبيان أسبابها المباشرة وغير المباشرة، وتفسير موقف النظام منها، وتحديد مواقف المرجعية الدينية، لا سيما خطاب السيد محمد باقر الصدر (قدس سره)، كما تتناول أبعادها الاستراتيجية ونتائجها على المدى البعيد، وتأثيرها في الانتفاضات اللاحقة، مع بيان أثرها في تشكيل الوعي الجمعي لمفهوم "الثورة الثقافية الإسلامية" في مواجهة التسلط. كما تسلط الضوء على رمزية "زيارة الأربعين" في تلك السنة، وكيف تحوّلت إلى ساحة مواجهة رمزية وثقافية، مستعرضةً نتائجها على الوعي الجماعي ومستقبل الحراك السياسي الشيعي في العراق. إنّ أهمية هذه الدراسة تنبع من محاولة فهم طبيعة المقاومة الثقافية التي مارسها الجماهير المنتفضة آنذاك، وتحليل الأبعاد الرمزية والشعائرية التي وظّفتها في مواجهة سياسات الطمس والإنكار التي اتبعها النظام وقد تم اتباع المنهج الوصفي التحليلي في تحليل الأحداث وربطها بالسياق العام، كما تم الاعتماد على مصادر تاريخية ووثائق معاصرة وخطب دينية وبيانات صادرة من أطراف الصراع. توصل البحث إلى أن الانتفاضة لم تكن مجرد احتجاج شعبي عابر، بل شكلت نقطة تحول في العلاقة بين السلطة والمجتمع الشيعي، وأسست لمرحلة جديدة من الوعي السياسي والديني المقاوم.

الكلمات المفتاحية: انتفاضة صفر، المقاومة الثقافية، البعث، الشعائر الحسينية،

زيارة الأربعين، النظام العراقي، القمع، المرجعية.

**The 9th International Scientific Conference for Arba'een Visitation
(Under the theme: The Safar Uprising of 1977)**

Asst. Lecturer Thani Abdullah Ahmed

Lecturer at the College of Education – Jigawa State, Nigeria

Abstract

In the month of Şafar 1977, the holy city of Najaf witnessed one of the most significant religiously motivated popular uprisings in modern Iraqi history. The Ba'athist regime responded with excessive force against massive crowds who had taken to the streets to commemorate the Husayni rituals. This study aims to analyze this uprising by exploring the political, religious, and social contexts that led to it. It investigates both the direct and indirect causes, explains the regime's response, and highlights the stance of the religious authorities—particularly the discourse of Sayyid Muhammad Baqir al-Sadr (may he rest in peace). The paper also examines the strategic dimensions and long-term impacts of the uprising, especially its influence on subsequent movements. A descriptive-analytical method has been employed to interpret the events and connect them to the broader historical framework. The study draws on historical sources, contemporary documents, religious sermons, and statements issued by parties involved in the conflict. The research concludes that the uprising was not a mere spontaneous protest but rather a pivotal moment that reshaped the relationship between the state and the Shi'a community, paving the way for a new phase of resistant political and religious consciousness.

Keywords:Şafar Uprising, Cultural Resistance, Ba'ath Regime, Husayni Rituals, Arba'een Pilgrimage, Iraqi Regime, Repression, Religious Authority.

تُعدّ انتفاضة صفر ١٩٧٧ من أبرز المحطات الثورية في تاريخ العراق المعاصر، خصوصاً في علاقتها بالمرجعية الدينية والوعي الشعبي الشيعي. وقد شكّلت هذه الانتفاضة تحدياً كبيراً للسلطة البعثية آنذاك، حيث خرج آلاف الزائرين متجهين نحو كربلاء في ذكرى أربعين الإمام الحسين (عليه السلام) متحدّين قرار المنع الحكومي، مما أدى إلى صدمات دموية، واعتقالات واسعة، وهزّات سياسية ما زالت آثارها ماثلة حتى اليوم. وقد جاءت هذه الانتفاضة كردّ فعل شعبي على سياسة النظام القمعية التي استهدفت الحريات الدينية، خصوصاً الشعائر الحسينية التي تمثل مظهرًا هوياتيًا عميقًا لدى شيعة العراق. في تلك المرحلة، شهد العراق تصعيداً ملحوظاً في سلوك النظام تجاه النشاطات الدينية، ولا سيما تلك المرتبطة بمواكب العزاء في شهري محرم وصفر. وتمثلت ذروة هذا التصعيد في منع مواكب الزائرين القادمين سيراً على الأقدام من مدينة النجف إلى كربلاء في أربعينية الإمام الحسين (عليه السلام)، مما فجر الغضب الشعبي وأدى إلى خروج تظاهرات واسعة سرعان ما تحوّلت إلى صدمات دموية مع القوات الأمنية. إن هذه الانتفاضة، على قصر مدتها الزمنية، شكّلت تحوّلًا مفصلياً في مسار العلاقة بين الدولة والمجتمع، كما ساهمت في تبلور مواقف سياسية ودينية حاسمة كان لها ما بعدها. وقد تميز هذا الحدث بتفاعل المرجعية الدينية معه، لا سيما موقف آية الله السيد محمد باقر الصدر (رحمته الله) الذي شكّل بُعداً روحياً وفكرياً للانتفاضة. تسعى هذه الدراسة إلى معالجة هذا الحدث التاريخي من خلال قراءة تحليلية، تستند إلى المنهج التحليلي الوصفي، وتستعين بمصادر تاريخية ووثائقية، بهدف فهم أبعاد الانتفاضة، ودراسة دوافعها، ونتائجها، وأثرها اللاحق على الواقع العراقي.

المحور الأول

الخلفية التاريخية والسياسية لانقفاضة صفر ١٩٧٧

إنّ فهم طبيعة انقفاضة صفر ١٩٧٧ لا يمكن أن يتمّ دون الإحاطة بالخلفية السياسية والاجتماعية للعراق خلال عقد السبعينيات؛ حيث شهدت البلاد آنذاك سيطرة حزب البعث العربي الاشتراكي بقيادة صدام حسين على مفاصل الدولة، وتصاعد السياسات القمعية تجاه القوى الدينية، لاسيما الشيعية منها. انطلقت شرارة الانقفاضة من النجف الأشرف، بمشاركة فعّالة من الحوزة العلمية والمواكب الحسينية، وقادتها النخبة الدينية والشباب الواعي، رافعين شعار "هيهات منا الذلّة"، في تحدٍّ صارخ لسلطة القمع، الأمر الذي قابله النظام باستخدام الرصاص الحي، ما أدى إلى سقوط شهداء واعتقال المئات (الجبوري، ٢٠٢٠).

جاءت هذه الانقفاضة في ظلّ سياسات قمع ممنهجة هدفت إلى فرض أيديولوجية قومية علمانية تابعة لحزب البعث، وتجفيف منابع الهوية الدينية، وخصوصاً فيما يتعلّق بالشعائر الحسينية. ويمثّل تزايد الوعي الديني والسياسي آنذاك، بقيادة المرجع السيد محمد باقر الصدر رحمته الله، أحد العوامل الجوهرية في تحفيز الوعي الجماهيري نحو الاحتجاج (الحيدري، ٢٠١٠).

الأسباب والدوافع المباشرة للانقفاضة :

١. منع المسيرة الأربعينية: تُعدّ المسيرة السنوية من النجف إلى كربلاء مشياً على الأقدام من أبرز مظاهر التعبير الديني في ذكرى الأربعين. وفي عام ١٩٧٧، قامت السلطات البعثية بمنع هذه المسيرة، واعتبرتها تهديداً أمنياً، ما أثار سخطاً شعبياً واسعاً، إذ عدّ المنع مساساً مباشراً بالهوية الدينية (الأسدي، ٢٠٢٢).

٢. تصاعد التوتر بين المرجعية والنظام: شهدت المدة التي سبقت الانتفاضة توترًا كبيرًا بين الحوزة الدينية والنظام البعثي، خاصة بعد اعتقال عدد من العلماء وطلبة الحوزة، وصعود نجم السيد محمد باقر الصدر بوصفه مفكرًا ومنظرًا إسلاميًا (الجبوري، ٢٠٢٠).

٣. القمع الممنهج للشعائر الدينية: اتخذ القمع أشكالًا متعددة، من مصادرة الأشرطة والرايات، إلى منع المجالس الحسينية، ما أعطى الشعور بأن النظام يستهدف "عاشوراء" كثقافة وهوية، لا مجرد فعالية دينية (الجزائري، ٢٠٠٣).

٤. التمييز الطائفي والتهميش: رغم شعارات وحدة الشعب، إلا أن الواقع كشف عن تهميش طائفي واسع، خصوصًا في مجالات التوظيف والتعليم، ما ساهم في خلق بيئة مشحونة ورافضة (الحيدري، ٢٠١٠).

٥. حكم الحزب الواحد والطبيعة الشمولية للسلطة: اعتمد النظام على إقصاء كافة القوى الفكرية والدينية المعارضة، وتعامل مع أي تجمع ديني بوصفه تهديدًا محتملًا، ففرض الرقابة والمنع على النشاطات الدينية (الجابري، ٢٠٢١).

٦. الحراك الشعبي والهوية الدينية: كان المجتمع الشيعي يحتفظ بوعي مذهبي حيوي، وكان يرى في الشعائر الحسينية سلاحًا رمزيًا في مواجهة الظلم، ولهذا فإن قمعها شكّل استنفازًا وجوديًا.

من هنا، أبرزت الانتفاضة بعدها العقائدي الرافض للظلم، المتمثل في الولاء للإمام الحسين (عليه السلام)، واعتُبرت شعائرها تجسيدًا لمقاومة الطغيان، وشكلاً من أشكال التعبير عن الهوية الدينية الجماعية. ونجحت، رغم القمع، في تثبيت مفاهيم الرفض الحسيني وتعزيز الروح الثورية التي تتجذر لاحقًا في الثمانينيات وما بعد. وساهمت في فضح الطغيان البعثي إقليميًا ودوليًا. ثم أثبتت أن الشعائر الحسينية ليست مجرد طقوس، بل أدوات مقاومة ورفض للطغيان.

السلطة السياسية والعلماء الدينية في انتفاضة :

شهد العراق في أواخر سبعينيات القرن العشرين تصاعداً خطيراً في المواجهة بين النظام الحاكم والتيارات الدينية، وقد بلغ هذا التوتر ذروته في انتفاضة صفر عام ١٩٧٧، والتي كانت نتيجة مباشرة لسياسات القمع المنهج التي تبناها حزب البعث العربي الاشتراكي بقيادة أحمد حسن البكر، وبدفع مباشر من نائبه آنذاك صدام حسين، الذي كان يمسك فعلياً بجهاز الدولة الأمني والمخابراتي، ويقود حملات تصفية واستئصال ضد كل تعبير ديني مستقل، وخاصة التشيع السياسي (المهاشمي، ٢٠١٤).

في المقابل، كانت المرجعية الدينية في النجف الأشرف، وعلى رأسها السيد محمد باقر الصدر، تتابع بدقة الأوضاع السياسية والاجتماعية، وتُسهّم في تعبئة الجماهير وطلبة الحوزة بروح التحدي والصمود، ولو من موقع الاحتياط والحذر. وقد اعتبر الصدر تَدَبُّرًا أنّ الشعائر الحسينية تمثل هوية الأمة وعنوان رفضها للظلم، ودعا بشكل غير مباشر إلى استمرارها رغم المنع البعثي، وهو ما منح الغطاء الشرعي والمعنوي للمتفضين (الفيض، ح. م ٢٠١٠).

كما كان للعلامة السيد محمد باقر الحكيم دور تنظيمي مهم ضمن دوائر العمل الإسلامي، حيث شارك في التعبئة والتشديد، وأشرف على شبكات التبليغ الديني والتوجيه الثوري، وقد اعتُقل لاحقاً ضمن حملة القمع التي تلت الانتفاضة. وشارك العديد من العلماء وطلبة الحوزة، أمثال الشيخ محمد باقر النمر وآخرين، في تأييد المسيرات والدعوة لها، مما شكّل اصطفاً واضحاً بين الحوزة والجماهير من جهة، وبين النظام القمعي من جهة أخرى (الطالقاني، ١٩٩٨).

وقد تمثل هذا الاصطفاف في المسيرة الكبرى التي انطلقت من النجف باتجاه كربلاء لإحياء أربعينية الإمام الحسين (عليه السلام)، متحدية قرار الحظر البعثي، فواجهها النظام باستخدام الرصاص الحي والاعتقالات، وسقط خلالها عدد من الشهداء، وسُجن المئات، في مقدمتهم رموز دينية واجتماعية بارزة.

دور العلماء والمرجعية :

يجدر بنا أن نذكر أبرز العلماء الدين الذين وقفوا وراء الانتفاضة:

- السيد محمد باقر الصدر ت. ١٣٤٤ كان المرجع الفكري والديني الأبرز آنذاك، وكان له الدور الأكبر في إذكاء الروح الثورية والوعي السياسي في أوساط الشباب والمجتمع الشيعي. لم يكن مشاركاً ميدانياً في الانتفاضة، لكنه كان الداعم والموجه والملمه لها.
 - السيد محمد باقر الحكيم ت. ١٣٤٤ كان من أبرز الناشطين في الساحة السياسية والدينية، وقد لعب دوراً تنظيمياً في دعم الحركة.
 - الشهيد الشيخ محمد باقر النمر أحد علماء الدين الذين كانت لهم مواقف واضحة في دعم التحركات الشعبية ضد القمع.
 - علماء الحوزة في النجف الأشرف
 - شارك عدد كبير من طلبة الحوزة العلمية ومشايخها في تنظيم المسيرات، وبارك العديد من العلماء هذه المواقف سرّاً أو علناً رغم شدة القمع.
- وهذا يرى الباحث تكون انتفاضة صفر قد دشنت شكلاً جديداً من المقاومة الثقافية، عبر إحياء الموروث الديني والمذهبي كأداة للاحتجاج السلمي والتمسك بالهوية، متجاوزة الحواجز الأمنية والسياسية. لقد مثلت انتفاضة صفر تحولاً نوعياً في طبيعة المقاومة الثقافية في العراق، إذ أظهرت قدرة الشعائر والمناسبات الدينية على أن تتحول إلى أدوات ناعمة للاحتجاج الجماعي، وأن تشكل سداً روحياً وفكرياً في وجه محاولات الطمس والقمع، ممهدة لبروز الوعي السياسي الديني الذي سترك أثره طويلاً في تاريخ العراق المعاصر.

المحور الثاني

البعد الجغرافي والاجتماعي للانتفاضة

رغم أن شرارة انتفاضة صفر ١٩٧٧ انطلقت من مدينة النجف الأشرف، إلا أن أصداءها امتدت لتشمل عدداً من المدن ذات الغالبية الشيعية، خصوصاً تلك المرتبطة بالحياة الدينية والشعائر الحسينية. وهذا ما يؤكد أن الانتفاضة لم تكن محلية فحسب، بل شكّلت فعلاً جماعياً له جذور اجتماعية وروحية عميقة في مختلف المناطق، ما يعكس وحدة الهوية الدينية في مواجهة القمع السياسي (الأسدي، ٢٠٢٢).

النجف: الحاضنة الأولى للاحتجاج

تمثل النجف الأشرف المركز الروحي والمرجعي للطائفة الشيعية في العراق والعالم الإسلامي، حيث تحتضن الحوزة العلمية وضريح الإمام علي (عليه السلام)، وقد شكّلت تاريخياً رمزاً للممانعة الدينية. وباعتبارها نقطة انطلاق المسيرة الأربعينية، فإن إجراءات الحظر التي اتخذها النظام البعثي أثارت المجتمع النجفي، لا سيما العلماء وطلبة الحوزة وأصحاب المواكب، ما أدى إلى اندلاع الاحتجاج (الجزائري، ٢٠٠٣).

كربلاء: الهدف الرمزي للزحف

كربلاء، مدينة الإمام الحسين (عليه السلام)، شكّلت الهدف النهائي للمسيرة، ولهذا كانت تحت أعين السلطة التي عززت الوجود العسكري ومنعت دخول الزائرين. ورغم الإجراءات الصارمة، أبدى سكان كربلاء تضامنهم، ما يكشف عن وحدة وجدانية مع حركة الزائرين، وإن لم تأخذ شكل الانتفاضة الصريحة (الحيدري، ٢٠١٠).

الجنوب والفرات الأوسط

شاركت مدن شيعية أخرى مثل الديوانية والناصرية والحلة والكوت، بشكل معنوي ورمزي، من خلال الهتافات المؤيدة والمشاركة الفردية، مما عكس مدى الترابط المذهبي والمقاومة الجماعية للسياسات القمعية (الشوكي، ٢٠١٥).

العاصمة بغداد

في بغداد، لم تسجل مظاهرات صريحة بسبب الطوق الأمني، إلا أن هناك تضامناً صامتاً من بعض الطلبة الجامعيين وأبناء الأحياء ذات الأغلبية الشيعية، في صورة تمثّل فيها الرفض دون الصدام (علي، ٢٠١١).

المحور الثالث

السياق السياسي والاجتماعي للانتفاضة

يحتوي هذا المحور على تحليل بعض السياقات السياسية والاجتماعية والثقافية كما يلي:-

جاءت انتفاضة صفر في سياق سياسي اتسم بالقمع المنهج من النظام البعثي الحاكم الذي سعى لفرض الأيديولوجيا القومية على حساب الهوية الدينية. وقد اتبعت السلطة سياسة قمعية ضدّ الحوزات والفعاليات الحسينية، بما في ذلك منع المواكب، ومراقبة الخطباء، والتضييق على الأنشطة الدينية المرتبطة بكرهلاء (الهاشمي، ٢٠٠٩).

زيارة الأربعين ١٩٧٧ : نقطة التحول

في ظل هذا السياق، جاءت زيارة الأربعين في ١٩٧٧ لتحوّل مواجهة من طابعها الرمزي إلى طابع ميداني، إذ خرج آلاف الزائرين من النجف إلى كربلاء رغم الحظر، معلنين تحدياً مباشراً للسلطة، ليتحول الحدث إلى انتفاضة عارمة، عُرفت بـ"انتفاضة صفر". تعامل النظام معها بالعنف المفرط، مما أدى إلى سقوط شهداء واعتقال المئات (العبيدي، ٢٠١٢).

انتفاضة ثقافية لا مطلبية :

لم تكن الانتفاضة سياسية بمفهوم المطالب، بل كانت حراكاً ثقافياً عقائدياً استند إلى رمزية الشعائر الحسينية ومركزية كربلاء في الوجدان الشيعي، حيث ظهرت شعارات مثل "هيهات منا الذلة" و"كربلاء رمز الحرية"، في ظل غياب تام لأي تنظيم سياسي ظاهر (الكبيسي، ٢٠١٧).

الاحتقان الاجتماعي والديني

الانغلاق السياسي، وتضييق الحريات، والشعور بالتهميش الطائفي، ساهم في تراكم الاحتقان. فكان هذا التراكم الاجتماعي والديني والرمزي هو الحاضنة التي فجّرت الغضب في لحظة رمزية، جعلت من زيارة الأربعين شرارة الانتفاضة (مجيد، ٢٠٠٨).

المحور الرابع

المقاومة الثقافية كمنظومة رمزية

بعد استعراض السياق السياسي والاجتماعي الذي أفرز انتفاضة، تتضح لنا أبعاد جديدة تتجاوز الفعل الاحتجاجي المباشر، لتأخذ شكل مقاومة ثقافية متجذرة في الوعي الجمعي الشيعي. إذ تحولت الممارسات الدينية، وفي مقدمتها الشعائر الحسينية، إلى رموز ثقافية تُمارَس في العلن لتحدي السلطة ومواجهة القمع بأساليب رمزية ذات فاعلية اجتماعية وسياسية.

إن زيارة الأربعين، بوصفها شعيرة مركزية في الوجدان الشيعي، لم تقتصر على كونها طقساً دينياً بحتاً، بل شكّلت منصة ثقافية تُعبّر عن مفاهيم الولاء والعدل والحق. وقد تحوّلت في ظل الاستبداد السياسي البعثي إلى ساحة للاحتجاج الصامت، يستعرض فيها الزائرون هويتهم وانتماءهم الديني والسياسي من دون حاجة إلى الشعارات المباشرة. في هذا الإطار، تُقرأ المسيرة بوصفها لغة رمزية تعكس البنية العميقة للمجتمع المقاوم (الأسدي، ٢٠٢٢، ص. ٤٩). ما يُميز المقاومة الثقافية أنها غير مرتبطة بزمن الحدث، بل تمثل نمطاً دائماً من الرفض المتجدد، تتكثف فيه الرموز، وتُستثمر فيه اللغة، وتُحمّل فيه الأفعال اليومية معاني تتجاوز المألوف. فحمل الشموع، والمشي حافياً، وارتداء الأكفان، وترديد اللطم أو المراثي الحسينية، كلها ممارسات تُترجم موقفاً سياسياً ضمناً يُعبّر عن رفض الظلم وتأكيد الاستمرار في خط الحسين (عليه السلام).

وقد أسهمت الانتفاضة في إبراز ما يسميه "سكوت" (Scott, 1990) بـ"النص الخفي للمقاومة"، أي تلك الرسائل التي تحملها الجماعة المضطهدة دون أن تصطدم مباشرة مع السلطة. فالجماهير التي خرجت إلى زيارة الإمام الحسين آنذاك، لم ترفع شعاراً سياسياً صريحاً، لكنها حملت الشعيرة مضموناً احتجاجياً عميقاً، شكّل تهديداً للسلطة من حيث ارتباطه بالهوية والتاريخ والرمز.

من هنا، فإن الحضور الجماهيري في الانتفاضة لم يكن فعلاً عفويًا فقط، بل فعلاً ذا طابع رمزي مدروس، يُعيد صياغة العلاقة بين الهوية والفضاء العام. لقد واجهت الجماهير قمع السلطة بالقوة الرمزية التي تمتلكها الشعائر، واستخدمت "الهوية الثقافية" كسلاح استراتيجي، يستحضر التاريخ، ويعبر عن الرفض، ويستند إلى مرجعية دينية عميقة.

إن فهم انتفاضة صفر من زاوية المقاومة الثقافية، يكشف أن الفعل الاحتجاجي لا ينحصر في المواجهة المسلحة أو التظاهر السياسي، بل قد يتجلى في الرمز والممارسة اليومية، في الشعائر، واللغة، والهتاف، وفي الإصرار على حفظ الموروث وإحيائه في زمن المنع والمطاردة.

التحليل العام للانتفاضة ودروسها المعاصرة:

١. زيارة الأربعين وتمثلاتها الثقافية: تُعدّ زيارة الأربعين في الوجدان الشيعي أكثر من مجرد طقس ديني شعبي، بل تمثل نظاماً رمزياً متكاملًا يحمل في بنيته مفاهيم الولاء، والمقاومة، والارتباط بالحق، وهي في ذلك تؤسس لثقافة احتجاجية راسخة ضد الظلم والسلطة الجائرة. وقد اتخذت هذه الزيارة، خصوصاً في سياقات القمع البعثي، بُعداً احتجاجياً ناعماً، كما في أحداث انتفاضة صفر ١٩٧٧، إذ تحوّلت إلى ساحة للممانعة الرمزية، يعبر فيها الزائرون عن رفضهم لمحاولات الدولة مصادرة الشعائر وتشويه الهوية الدينية (الأسدي، ٢٠٢٢).

٢. برزت آنذاك مظاهر عدة للمقاومة الثقافية: الرايات، المواكب، الأهازيج، واللطم، التي مثلت أدوات تعبير رمزي عن ثورة متجددة. ولم تكن هذه الممارسات عفوية، بل ارتكزت إلى بنية معرفية وروحية ترعاها المرجعية الدينية، ممثلة بشخصية الإمام السيد

محمد باقر الصدر رحمته، الذي نظّر لدور الشعائر بوصفها حاملاً للوعي الجمعي، ووسيلة للتعبئة الاجتماعية والسياسية دون الوقوع في التصادم المباشر (الصدر، ١٩٧٧).

٣. المرجعية الدينية وتوجيه فعل المقاومة: شكّلت المرجعية الدينية في النجف الأشرف إطاراً مؤسسياً لاحتضان ودعم هذا الشكل من المقاومة. ورغم أن المرجعية لم تُصدر حينها مواقف سياسية مباشرة، إلا أن خطابها كان مُحَمَّلاً بالرمز، ودالاً على موقف واعٍ تجاه القمع. ويُسجَل للسيد الصدر تأكيدُه أن «الشعائر ليست تقاليد فارغة، بل هي فعل تربوي، ثوري، يربط الماضي بالحاضر» (الصدر، ١٩٧٧). وهكذا، فقد قدّمت المرجعية نموذجاً فريداً من المقاومة الناعمة، التي تجمع بين التأصيل العقدي والمرونة السياسية، مستندة إلى منهج «الصمت الدال» الذي يفهمه المتدينون ضمن بنيتهم الثقافية بوصفه موقفاً لا يقل تأثيراً عن التصريح (الأنصاري، ٢٠١٤).

٤. قراءة تحليلية في خطاب السيد محمد باقر الصدر رحمته يمكن تقسيم أبعاد خطاب

السيد الصدر رحمته إلى ثلاثة مستويات:

- البعد العقائدي: ترسيخ رمزية الحسين عليه السلام كمصدر إلهام للمجتمع المؤمن في مواجهة الظلم، بما يعزز الهوية الروحية.
- البعد السياسي: إدانة ضمنية لقمع النظام دون الدخول في صراع مفتوح، مما يدل على حنكة المرجعية في إدارة المواجهة.
- البعد التربوي: الدعوة إلى الثبات وضبط النفس، مما ساعد في احتواء الغضب الشعبي وتحويله إلى طاقة رمزية مستدامة (الجزائري، ٢٠٠٣). وقد بات خطاب السيد الصدر رحمته لاحقاً وثيقة مرجعية في الانتفاضات اللاحقة، لا سيما انتفاضة شعبان ١٩٩١، بوصفه يؤسس لفكرة «الشعيرة كأداة مقاومة سلمية».

٥. الشعائر الحسينية كحامل لهوية جمعية مقاومة: لم تكن الشعائر الحسينية، وخاصة زيارة الأربعين، ممارسات دينية معزولة، بل شكّلت فضاءً رمزيًا موازٍ للفضاء السياسي الرسمي، يُمارَس فيه التعبير الجمعي عن الانتماء والاحتجاج. وقد أسهمت الرموز المستخدمة - كالألوان، والشعارات، والإيقاعات - في إعادة إنتاج الهوية الشيعية وفق منطق المقاومة. كشفت الدراسة أن هذه الشعائر تمتلك قابلية تحويلية عالية، تجعلها أداة فعالة للتعبئة الوجدانية والسياسية، وهذا ما ظهر بوضوح في انتفاضة صفر، حيث أصبحت المواكب تمثل «لغة احتجاجية صامتة» ذات دلالات قوية في سياق الصراع مع السلطة.

٦. بين الرمز والدلالة: تشير المعطيات إلى أن انتفاضة صفر لم تكن مجرد رد فعل عفوي، بل تحولاً بنيويًا في فهم المقاومة داخل المجتمع الشيعي، إذ تلاقت فيها: الرمزية الشعائرية، التوجيه المرجعي غير المباشر، والوعي الجماهيري المنظم. وبالاستناد إلى أطروحة سكوت (١٩٩٠) حول «أسلحة الضعفاء»، يمكن القول إن الصمت، الشعيرة، والرمز كانت أدوات ذات فعالية احتجاجية قصوى، في ظل عجز السلطة عن فهم أبعادها، ومحاولتها تفكيكها من خلال الخطاب القومي الأحادي.

لقد خلقت الانتفاضة ما يشبه «الاستقلال الرمزي» عن السلطة، وأرست ملامح مشروع طويل الأمد للمقاومة الثقافية التي تظهرت لاحقًا في الخطاب الإسلامي الحركي، خاصة في نشوء حزب الدعوة الإسلامية ومجموعة من الحركات التي استثمرت في تلك الرمزية المقاومة.

كشفت الدراسة أن انتفاضة ليست مجرد حادثة عابرة، بل تمثل بداية الوعي الاحتجاجي الشيعي المنظم في مواجهة الدولة، وقد تميزت بأبعاد متشابكة: -

- قمع ممنهج واستهداف للهوية الدينية.
- استنهاض المرجعية للوعي الشعبي.
- تحويل الشعائر إلى فعل احتجاجي سلمي.

وبالرغم من الدماء والاعتقالات، أدت الانتفاضة إلى ترسيخ فكرة أن الشعائر ليست للعبادة فقط، بل أداة بناء للهوية الجمعية، ومصدر تعبئة مستدامة، خصوصاً بعد العام ٢٠٠٣، حيث تحوّل الزحف الأربعيني إلى أداة حرة ومفتوحة لاستعادة تلك الرمزية بصيغة أكثر إن المقاومة الثقافية في انتفاضة صفر تمثل نموذجاً متقدماً لفعل احتجاجي يستخدم الرموز الدينية كأداة للرفض والتحدي.

الرفض الحسيني وتعزيز الروح الثورية العالمية :

إنّ الرفض الحسيني الذي عبّر عنه الإمام الحسين عليه السلام في كربلاء لم يكن مجرد موقف اعتراضى آنى على ظلم بني أمية، بل مثل انطلاقة فكرية وروحية نحو تأسيس ثقافة المقاومة في وجه الطغيان. وقد تحوّل هذا الرفض، بما يحمله من مضامين العدل والحرية والكرامة، إلى رمز ثوري يتجاوز الزمان والمكان، ليُلهم الشعوب المستضعفة في كلّ أنحاء العالم.

وقد تجذّر هذا الأثر بوضوح خلال الثمانينيات وما بعدها، في ظلّ تصاعد الحركات التحررية ومواجهة الدكتاتوريات، حيث استحضرت النهضة الحسينية كمصدر إلهامٍ للصمود والثبات وفي القارّة الإفريقية، على وجه الخصوص، كان لروح عاشوراء دورٌ بارزٌ في رفع الوعي بمظلومية الشعوب، ومواجهة أنظمة القمع والاستعمار الجديد، لتصبح كربلاء رمزاً حياً لمواجهة الظلم والانتصار للحق في كل زمان ومكان. تشكّل الرمزية العاشورائية في الوعي الشيعي منبعاً دائماً للحراك الجماهيري، يتجدّد مع كل لحظة قمع.

المحور الخامس

الخاتمة

انتفاضة صفر ١٩٧٧ ليست حدثاً عابراً في تاريخ العراق، بل تمثل علامة فارقة في صراع الشعب ضد الديكتاتورية. لقد أكدت هذه الانتفاضة أن الشعوب إذا ما تلاحت مع قيادتها الواعية، فإنها قادرة على مواجهة أعتى الطغاة. وهي اليوم تمثل إرثاً نضالياً يجب دراسته وتفعيله في الوعي السياسي والديني المعاصر. ومن المهم تحليل هذا الحدث وفق رؤية شاملة تستوعب أسبابه المباشرة وغير المباشرة، وآثاره القريبة والبعيدة، وما تركه من أثر على الوعي الجمعي والانتفاضات اللاحقة.

كانت السلطة الحاكمة في العراق عام ١٩٧٧ هي حزب البعث العربي الاشتراكي، بقيادة الرئيس أحمد حسن البكر، لكن النفوذ الأكبر كان بيد نائبه صدام حسين، الذي كان يمسك فعلياً بزمام الأجهزة الأمنية والمخابرات، ويخطط لتصفية كل معارضة دينية أو فكرية. إذ أنها حدثاً مفصلياً في تاريخ الحركة الدينية والسياسية في العراق المعاصر، قد مثلت لحظة تقاطع بين الوعي العقائدي الجماهيري، والقمع السلطوي البعثي، والصعود الرمزي للمرجعية الدينية كمرکز قيادة أخلاقي وفكري. لقد كشفت الانتفاضة، بما تضمنته من مسيرة زائرين سلمية، وما واجهته من قمع دموي، عن حجم الهوة بين السلطة والشعب، وفضحت السياسات المنهجية التي استهدفت تغييب الهوية الشيعية وشعائرها. كما بينت الدراسة أن موقف المرجعية، المتمثل بخطاب السيد محمد باقر الصدر رحمته، لعب دوراً محورياً في ضبط ردود الأفعال، وتثبيت مفهوم "الشعائر كفعل مقاومة سلمية".

وقد كشفت الدراسة أن هذا الشكل من المقاومة اعتمد على الرموز الدينية والشعائر الحسينية بوصفها لغة بديلة للاحتجاج، تعبر عن موقف جمعي يتحدى السلطة ويؤسس لوعي جديد يتجاوز المألوف.

إن الرموز التي تجلّت في شعارات الزيارة الأربعينية، والتهافتات الحسينية، وسلوكيات الجماهير أثناء المواكب، ليست مجرد طقوس تقليدية، بل هي أدوات خطابية محمّلة بمضامين سياسية وأخلاقية تستبطن ثقافة الشهادة، والحق، والعدل، ومواجهة الظلم وهذا ما يمنح هذه الانتفاضة طابعاً ثقافياً عميقاً يتجاوز البعد الحدّثي الزمني، ليصبح نموذجاً تكرر دلالته في مختلف محطات الرفض في العراق والمنطقة.

ومن خلال تفكيك آليات هذه المقاومة الرمزية، اتضح أن الهوية الثقافية الدينية للشبيعة في العراق قد لعبت دوراً محورياً في بناء وعي جماهيري مقاوم، غير خاضع لخطاب السلطة، بل قائم على مرجعية ثقافية ودينية مستقلة. وقد ساهمت هذه الهوية، برمزيتها العاشورائية، في تحويل فعل الزيارة إلى حراك جماهيري واعٍ، تقاطع فيه المقدّسات الدينية مع المطالب السياسية والاجتماعية.

كما أظهرت الدراسة أن الدولة البعثية، رغم كل أدواتها القمعية، لم تنجح في تفكيك هذا النسيج الثقافي المقاوم، بل على العكس، أدّى القمع إلى تعزيز الوعي الرمزي للمجتمع، وترسيخ مفردات الخطاب المقاوم، ما أسهم لاحقاً في تراكم الوعي الثوري وتمهيد الطريق أمام تحوّلات أكبر شهدتها العراق في العقود التالية.

وتؤكد النتائج أن فهم هذه الانتفاضة لا يكتمل إلا من خلال قراءة المنظومة الرمزية التي أحاطت بها، والتي تشكلت من موروثات ثقافية وتاريخية متراكمة، جعلت من الطقوس الدينية منبراً للتعبير عن المظلومية ورفض الاستبداد. وبذلك، يمكن القول إن انتفاضة صفر ١٩٧٧ ليست مجرد ردّ فعل على قمع سياسي، بل هي إعادة إنتاج ثقافية للمقاومة، استخدمت أدوات الثقافة والدين والتاريخ لصياغة مشهد احتجاجي فريد. في ضوء ذلك، تلخص الدراسة إلى النتائج الآتية:

نتائج البحث

١. الانتفاضة كتجلب تراكمي للاحتقان السياسي والاجتماعي: لم تكن انتفاضة صفر مجرد رد فعل ديني على منع ممارسة الشعائر، بل عبّرت عن تراكم طويل من التهميش والإقصاء الذي مارسه النظام البعثي بحق الطائفة الشيعية في العراق، وقد تجسّد ذلك في شعور جماعي بالظلم والحرمان.
٢. المرجعية الدينية كعنصر توازن وتوجيه: لعبت المرجعية الدينية، وعلى رأسها السيد محمد باقر الصدر (قدس سره)، دوراً فاعلاً في ضبط إيقاع الانتفاضة ومنع انزلاقها نحو العنف، مما حافظ على الطابع السلمي لها، وأسّس لنهج المقاومة الناعمة.
٣. تحوّل الشعائر إلى وسيلة احتجاج: برزت قدرة الشعائر الحسينية على التحوّل من طقوس دينية تعبدية إلى أدوات فعالة للاحتجاج السياسي السلمي، بما يعزز من ثقافة المقاومة ويُعيد إنتاج الهوية الدينية بوصفها وسيلة ووعي مجتمعي.
٤. انطلاقة فكرية وسياسية: مثّلت الانتفاضة منطلقاً لحركات شيعية لاحقة، ووضعت الأساس لمسار طويل من المواجهة الفكرية والسياسية بين المرجعية والنظام القمعي.
٥. تضامن الوجدان الشيعي العراقي: كشفت الانتفاضة عن وحدة وجدانية شيعية عميقة، تمثّلت في تضامن مدن الوسط والجنوب رغم تفاوت مستويات المشاركة، ما أظهر قوّة الانتفاء الجمعي في مواجهة الطغيان.
٦. القيادة الواعية نموذجاً: قدّم السيد محمد باقر الصدر نموذجاً فريداً للقيادة التي تمزج بين الفكر والحركة، وبين العمق الديني والبصيرة السياسية، في لحظة شديدة التعقيد.
٧. المواكب كأداة تعبئة شعبية: أدّت المواكب الحسينية دوراً محورياً في تنظيم الجماهير وتوجيهها، فكانت بمثابة نواة لتشكيل ووعي احتجاجي متماسك.

٨. تكامل الحوزة والجمهور: أظهرت الانتفاضة حجم التكامل بين المرجعية والجمهير، بما عزّز من قدرة الحوزة على التأثير في القرار الجماعي وخلق حالة ضغط على السلطة.
٩. القمع كمحفز للثبات العقائدي: أبانت التجربة أن القمع لا يमित العقيدة بل يُعمّقها، فكلما اشتدّت الملاحقات الأمنية، ازداد تمسّك الجماهير بشعائرها وهويتها الدينية.
١٠. المقاومة الثقافية كقوة فاعلة: أثبتت انتفاضة صفر أن الثقافة، والموروث الرمزي، والشعائر، يمكن أن تكون أدوات مقاومة فعالة، تعبّر عن التحدي السياسي والاجتماعي برمزية عميقة، كما تجلّى ذلك في تحدي الحشود لقرارات المنع خلال زيارة الأربعين.
١١. المرجعية بوصفها فاعلاً ثقافياً: تجاوزت المرجعية في هذه المرحلة الدور الفقهي التقليدي، لتصبح فاعلاً ثقافياً يمتلك سلطة معنوية كبرى في توجيه الرأي العام، وصياغة الوعي الجمعي.
١٢. الشعائر كذاكرة احتجاجية متجددة: تحوّلت زيارة الأربعين إلى منصة احتجاج سنوية، تساهم في استحضار الماضي واستنهاض الحاضر، بما يجعلها ذاكرة حيّة تقاوم النسيان وتؤكد الهوية.
١٣. نموذج احتجاجي متكرّر: أصبحت انتفاضة صفر نموذجاً مرجعياً يُتخذ في احتجاجات لاحقة، مثل الانتفاضة الشعبانية ١٩٩١، والاحتجاجات التي أعقبت ٢٠٠٣، بما في ذلك مشاهد التعبير السياسي خلال زيارة الأربعين.
١٤. الرؤية المستقبلية للمقاومة الثقافية: تؤكد هذه التجربة على الحاجة إلى تطوير فهم شامل للمقاومة الثقافية اليوم، في ظل تحديات الغزو الثقافي والعولمة الإعلامية وتسييس الهوية.

التوصيات

استنادًا إلى نتائج البحث، يوصي الباحث بما يلي:

١. توثيق تاريخ الانتفاضات الدينية: من الضروري كتابة وتأريخ انتفاضات الشيعة في العراق، وخاصة انتفاضة صفر، بمنهج علمي موضوعي، بعيدًا عن التسييس أو الإهمال.
٢. تشجيع الدراسات الأكاديمية: ينبغي حث الباحثين على دراسة العلاقة بين الشعائر الدينية والحركات الاجتماعية، لفهم آليات تشكّل الوعي الجماهيري في البيئات الدينية.
٣. إدراج الانتفاضة في المناهج التعليمية: يُقترح تضمين أحداث انتفاضة صفر ضمن مقررات التاريخ العراقي الحديث، نظرًا لأهميتها في تشكيل الوعي السياسي والاجتماعي.
٤. جمع الشهادات الشفوية: يُوصى بإنشاء مشاريع لتوثيق شهادات المشاركين وأسر الشهداء، لحفظ البعد الإنساني والتجريبي للانتفاضة.
٥. تحليل خطابات المرجعية: ضرورة دراسة خطابات المرجعيات بوصفها فواعل ثقافية وسياسية، لها دورٌ في تأطير الحركات الاحتجاجية وتوجيهها.

المقترحات البحثية المستقبلية

١. دراسة مقارنة بين انتفاضتي ١٩٧٧ و ١٩٩١: من حيث التنظيم والقيادة والسياقات الاجتماعية والسياسية، لرصد التحولات في نمط الاحتجاج الشيعي.
٢. تحليل دور الإعلام في صناعة الرواية: دراسة تأثير الإعلام الرسمي والمعارض في تغطية الانتفاضة، وكيف ساهم في تشكيل الوعي أو تحريف الوقائع.
٣. تأثير الانتفاضة في المهجر: بحث أثر الانتفاضة على الحركات الشيعية في الشتات، ومدى تفاعلها السياسي والثقافي مع الحدث.
٤. تحقيق في خطابات السيد الصدر: دراسة تفصيلية في خطاب ومحاضرات السيد محمد باقر الصدر خلال تلك المرحلة، وربطها بنظريته السياسية الإسلامية.
٥. توثيق رموز الانتفاضة المنسيين: إعداد قاعدة بيانات عن الشخصيات المغيّبة أو غير المعروفة من رموز الانتفاضة، وتوثيق دورهم.
٦. تحليل المرجعية كفاعل رمزي: دراسة المرجعية بوصفها مؤسسة رمزية ثقافية، تتجاوز الإطار الفقهي التقليدي إلى مجال القيادة الفكرية والاحتجاجية.
٧. مقارنة أدوات المقاومة الثقافية: تحليل أدوات المقاومة الرمزية في انتفاضة صفر، ومقارنتها بوسائل الاحتجاج في العصر الرقمي بعد ٢٠٠٣.

المراجع

١. الأسدي، م. ك. (٢٠٢٢). الشعائر الدينية كوسيلة احتجاج ناعم: دراسة تحليلية لمسيرة الأربعين. مجلة فكر معاصر، (٧).
٢. البطاط، ج. (٢٠٠٦). السيد محمد باقر الصدر: سيرة ناثرة. بيروت: دار الهدى.
٣. الجزائري، ع. الزهراء. (٢٠٠٣). كربلاء الثورة الخالدة. النجف: منشورات العتبة الحسينية.
٤. الحسني، ك. ع. الح. (٢٠٠٧). المرجعية الدينية في العراق: الموقف من السلطة ١٩٥٨-٢٠٠٥. بيروت: دار الهادي.
٥. الحيدري، ع. (٢٠١٠). الانتفاضات الشيعية في العراق: دراسة تاريخية. بغداد: دار الجاحظ.
٦. الحكيم، م. ب. (١٩٩٨). منهج التغيير في فكر الإمام الحسين عليه السلام. بيروت: مؤسسة دار الإسلام.
٧. الخاقاني، ع. ع. (٢٠١٨). الهوية الدينية والصراع السياسي في العراق المعاصر. النجف: مركز الدراسات والبحوث الإنسانية.
٨. خزعل، ع. ع. أ. (٢٠٠٨). الذاكرة الشيعية: من عاشوراء إلى الانتفاضات. بيروت: المركز الثقافي العربي.
٩. الزبيدي، ع. أ. (٢٠٠٧). الحوزة العلمية ودورها السياسي في العراق الحديث. بيروت: مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي.
١٠. السدر، م. ب. (١٩٧٧). بيان إلى الأمة الإسلامية بشأن أحداث الأربعين. النجف الأشرف: أرشيف الحوزة.

١١. الشوكي، س. (٢٠١٥). موسوعة عاشوراء في الوجدان الشيعي العراقي. كربلاء.
١٢. الصدر، م. ب. (٢٠٠٠). الإسلام يقود الحياة. بيروت: دار المعارف.
١٣. الطالقاني، ن. م. (١٩٩٨). الانتفاضات الشيعية في العراق. بيروت: دار الهادي.
١٤. علي، ج. ن. (٢٠١١). التشيع والدولة العراقية الحديثة. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.
١٥. علوان، م. ك. (٢٠١٩). المقاومة الناعمة: مقارنة اجتماعية دينية. بغداد: دار الكتاب العراقي.
١٦. العلوي، ق. م. (٢٠٢١). رمزية كربلاء بين الطقس والثورة: إعادة قراءة شعائر عاشوراء. مجلة تراثيات معاصرة، (٤).
١٧. العبيدي، ح. ج. (٢٠٠٤). صراع الهوية والدولة في العراق. دمشق: دار المنطلق.
١٨. العبيدي، ح. (٢٠١٢). وقائع الانتفاضات الشيعية المعاصرة. النجف: دار الرضوان.
١٩. الفيض، ح. م. (٢٠١٠). السيد محمد باقر الصدر: السيرة والفكر. قم: مؤسسة الأعلمي.
٢٠. الغزي، ع. ع. (٢٠١١). صفر ١٩٧٧: قراءة في مسيرة ودماء. كربلاء: منشورات العتبة العباسية.
٢١. الربيعي، ع. ع. الح. (٢٠١١). الانتفاضات الشيعية في العراق المعاصر. بغداد: مركز دراسات الجنوب.
٢٢. الذاكرة العراقية. (٢٠١٠). أحداث العراق المعاصر من خلال الوثائق السرية. بيروت: دار الساقى.

٢٣. الهاشمي، ع. ص. (٢٠١٤). تاريخ العراق الحديث والمعاصر. بغداد: المركز الأكاديمي.
٢٤. الهاشمي، س. (٢٠٠٩). السلطة والمجتمع في العراق البعثي. بغداد: المركز العراقي للدراسات السياسية.
٢٥. الهاشمي، ع. ك. (٢٠٢٠). زيارة الأربعين في زمن القمع: المقاومة الرمزية في انتفاضة ١٩٧٧. مجلة دراسات إسلامية معاصرة، ١٨ (٢).
٢٦. الهاشمي، م. ع. الز. (٢٠١٢). الحركة الإسلامية في العراق: جدلية الدين والسياسة. النجف الأشرف: دار المؤرخ العربي.
٢٧. رحيم، ك. ع. الك. (٢٠١٣). دور الشعائر الدينية في تشكيل الوعي السياسي عند الشيعة في العراق. مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية - جامعة كربلاء، ١١ (٢).
٢٨. فاضل، ح. ع. (٢٠١٦). العراق بين الطائفية والمقاومة الثقافية: دراسات في التحولات الاجتماعية. بغداد: مركز النهرين للدراسات الإستراتيجية.
٢٩. الكبيسي، م. ع. (٢٠١٧). ثقافة الشعائر بين الدين والسياسة. كربلاء: منشورات المعهد الحسيني.
٣٠. مجيد، ر. (٢٠٠٨). الوعي الديني والمجتمع الشيعي في العراق. بغداد.
٣١. موسوي، ح. ع. الح. (٢٠١٥). المرجعية والتحول الاجتماعي في العراق المعاصر. بيروت: دار الفرات للنشر.
٣٢. نعمة، س. ع. الم. (٢٠٢٠). الحركات الإسلامية في العراق: من التأسيس إلى المواجهة. بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.
33. Scott, J. C. (1990). *Domination and the Arts of Resistance: Hidden Transcripts*. Yale University Press.